وقيل : نزلت لأجل قول اليهود لرسول ا A كيف تقول أي في سورة الإسراء (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقد أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا . وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) في سورة الإسراء .

وقال الترمذي عن ابن عباس : قال حيي بن أخطب اليهودي : في كتابكم (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) ثم تقرأون (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ؛ فنزل قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي...) الآية .

يمكن معلوم فكل يبلغوه أن رسله إلى يوحي مما علمه من شيء على يدل ما : ا وكلمات A E أن يخبر به . فإذا أخبر به صار كلمة . ولذلك يطلق على المعلومات كلمات لأن ا أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل . ونظيرها قوله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات ا) . وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي ولإثبات التعلق الصلوحي لصفة العلم . وقل من يتنبه لهذا التعلق .

ولما كان شأن ما يخبر ا به على لسان أحد رسله أن يكتب حرصا على بقائه في الأمة شبهت معلومات ا المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المداد الذي به الكتابة على طريقة المكنية وإثبات المداد تخييل كتخيل الأظفار للمنية . فيكون ما هنا مثل قوله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات ا) فإن ذكر الأقلام إنما يناسب المداد بمعنى الحبر .

ويجوز أن يكون هنا تشبيه كلمات ا بالسراج المضيء لأنه يهدي إلى المطلوب كما شبه نور ا وهديه بالمصباح في قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ويكون المداد تخييلا بالزيت الذي يمد به السراج .

والمداد يطلق على الحبر لأنه تمد به الدواة أي يمد به ما كان فيها من نوعه ويطلق المداد على الزيت الذي يمد به السراج وغلب إطلاقه على الحبر . وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين فتتضمن الآية مكنيتين على الاحتمالين .

واللام في قوله (الكلمات) لام العلة أي لأجل كلمات ربي . والكلام يؤذن بمضاف محذوف تقديره : لكتابة كلمات ربي إذ المداد يراد للكتابة وليس البحر مما يكتب به ولكن الكلام بني على المفروض بواسطة " لو " .

والمداد : اسم لما يمد به الشيء أي يزاد به على ما لديه . ولم يقل مدادا إذ ليس المقصود تشبيهه بالحبر لحصول ذلك بالتشبيه الذي قبله وإنما قصد هنا أن مثله يمده .

والنفاد : الفناء والاضمحلال . ونفاد البحر ممكن عقلا .

وأما نفاد كلمات ا بمعنى تعلقات علمه فمستحيل فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات ا بقيد الظرف وهو (قبل) إمكان نفاد كلمات ا . ولكن لما بني الكلام على الفرض والتقدير بما يدل عليه (لو) كان المعنى لو كان البحر مدادا لكلمات ربي وكانت كلمات ربي مما ينفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي .

وهذا الكلام كناية عن عدم تناهي معلومات ا تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبي A فلا يقتضي قوله (قبل أن تنفد كلمات ربي) أن لكلمات ا تعالى نفادا كما علمته .

وجملة (ولو جئنا بمثله مددا) في موضع الحال .

و (لو) وصلية وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقق معها مفاد الكلام السابق فينبه السامع على أنها متحقق معها مفاد الكلام السابق . وقد تقدم عند قوله تعالى (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) في سورة آل عمران . وهذا مبالغة ثانية .

وانتصب (مددا) على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ (مثله) أي مثل البحر في الإمداد .

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله وحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صلحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا [100])